على هامش الصراحة

إلا هذه المهنة....

■ إحسان شمران الياسري

عندما أقبلتُ على كتابة هذا العمود، حاولت اختبار إمكاناتي في تحديد أي المهن يمكن أن نتساهل في إتقانها، وأيها لا نتساهل.. ودرت بخاطري، فقررتُ اختبار أمر آخر..

أي المهن لها أولوية في حياتنا، وأيها تأتي في المراحل التالية.. وكان هذا أسهل عليّ في ظاهر الأمر.

وأنا هنا لا أُميّز بين المهنة، والوظيفة، لأنني لن أخاطر بضياع الهدف المرجو من هذه الأسطر..

ومن أجل هذا، سيكون عندي الأمر سواء أن أقول مهنة القاضي أو وظيفة القاضي، ولا أقصد بالأخيرة إلا بمفهومها الاجتماعي والقانوني وليس مفهومها الإداري. وكذا وظيفة الطبيب في المجتمع أو مهنته.

فأي المهن نخشى فسادها، ثم نتساهل بفساد الأخرى إن لم يكن هناك بُدٌ من فساد إحداهما..

وأي المهن لها الأولوية من اهتماماتنا؟

وبدأتُ بأبعد ما يُفترض أن يكون مُهّماً، لترتيب أدناها صعوداً.. ومرة أخرى عجبتُ من انني لم أجد إن مهنة بعينها لم تكن ذات أولوية.

ويبدو إن البشرية في مسيرتها الطويلة أغنت تراثها بمجموعة المهن التي لم يكن بدٌ من وجودها. فمهنة الطبيب، أو الطب، ترتبط بحياتنا وبوجودنا المادي والروحي وبمستقبلنا، لذا لا يمكن التساهل في نوعية أداء ذوي هذه المهنة، أو القبول بحرماننا من أدائهم.. ولا القبول بفسادها أو فسادهم..

ومهنة المعلم والتعليم اخطر من الأولى، وكذا القضاء والهندسة والمحاسبة والمحاماة والزراعة والصناعة وو..

فلم أجدُ معلماً ناجحاً اميناً متفانياً إلا بوجود مدرسة دفعته يوماً إلى الحياة العملية بعد أن تَعلّم في الصف الأول الابتدائي على يدي معلم آخر كان أميناً في تعليمه، ثم واصل مسيرته إلى أن يكون معلماً..

ولا نجد طبيباً إلا وقد تعّلم من الأول الابتدائي إلى أن تدفعه كلية الطب إلى العمل الميداني.. فلم يكن لمهنة الطب غنىً عن مهنة التعليم ابتداءً..

وربما يسأل أحد، ماذا لو أصبحنا لا نُعير اهتماماً لمهن تصليح السيارات مثلا، فليس كل الناس لديهم سيارات وبالتالي فهي ليست مهنة حاكمة كمهنة الطبيب أو القاضي أو الخبّاز او المؤذن او....

ومرة أخرى نعود للأولويات، فلا غنى لنا عن (البنجرجي) او (الفيترجي)، او (التورنجي) او كل مهنة تنتهي بـ (ال.....جي.....)، الذين يجعلون سياراتنا تسير في الشوارع، وبدونها نجلس في بيوتنا او نعود الى أصدقائنا الحمير والبعران..

ثم ادركت ان المهنة الاولى التي سبقت الاول الابتدائي، هي مهنة الام والاسرة، التي اطلقت هذا (النشيْ) الى براري الحياة.

وعلى هذا، يجب ان نتدارك اصحاب المهن جميعا بالتبجيل والرعاية ووجوب الاتقان والامانة.. وان لا يسمح مجتمعنا بتدني إحداها مهما كانت الذرائع.

أما أحد أصدقائي، فيرى اننا نحتاج احياناً لمهنة (النصب والاحتيال)، لأن بعضنا بحاجة إلى أن يتحصن من هؤلاء النصّابين والمحتالين، حتى لو تعرّض لحادث نصب واحتيال في حياته، على أن يكون هذا الحادث من النوع (المسيطر عليه)!!

مثلاً تدعوه إلى الغداء.. ثم بعد أن تتناولا نصف الوجبة، تقول له مُتصّنعاً الإحراج والأسف وانت تبحث في جيوبك..

– وداعتك أخوية (أبو أسامة)، يمكن اختك (أم علاوي) تاركة المحفظة مالتي بالبدلة الثانية، وآني ولا فلس بجيبي!

ihsanshamran@yahoo.com

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الدليل إلى العالم القديم

بلاد ما بين النهرين.. مهد الحضارة

الباحث : مايكل وود

في عالمنا اليوم نحن ننظر الى حضارتي اليونان والرومان على أنهما الجذور الأولى.ولكن ،كما يذكرنا مايكل وود، فإن الحياة المتحضرة بدأت في العراق قبل ٤٠٠٠ سنة من كلتا الحضارتين.

الخروج من السماوة شمالاً باتجاه بغداد، هناك طريق قصير يبدأ من الشارع الرئيس خلف جسر على الفرات، وهو طريق متعرج يتجه شرقا الى المفازات الريفية. حالاً، سوف تدخل الى الصحراء الحقيقية المغطاة بالكثبان الرملية. ثم، بعد زهاء٦٠ كم، ينكشف أمامك المشهد المطلوب.

وأنت تخرج من أفق الضباب، تترآى أمام عينك مجموعة من التلال الرمادية المنخفضة. أعلاها يأخذ شكل زقورة متآكلة الجذع، أنها زقورة الإلهة عشتار والإله أنو (سيد السماء)، إنها الوركاء، موقع لا يماثله موقع آخر على الأرض، ومعلم بارز في قصة الإنسان.

كان وليام لوفتس ، أول أجنبي في العصر الحديث يرى هذه المشاهد في سنة ١٨٤٩ ، لقد كتب مصدوماً تقريباً : "من أول وهلة لا أعرف أي شيء أكثر إثارة للإعجاب من هذه البقايا الكلدانية ، تلوح في الأفق في عظمة متفردة بين السهول والمستنقعات المحيطة بها....من بين جميع المدن والمواقع القديمة لم أر في حياتي مدينة تفوق الوركاء روعة،قياساً بالمدن جميعاً".

٤٠٠٠ سنة من التاريخ

اسمها "أوروك" في الأكدية، وفي السومرية "أونوك"، وفي الكتاب المقدس تسمى "إرك" بينما سمّاها الإغريق"إرخو"، تأسست المدينة في الألف الخامس قبل الميلاد واستمرت إلى الألف الأول بعد الميلاد. حُكمت لاحقاً من قبل الرومان المقدونيين والفرثيين والعرب ثم المسلمين حتى هجرت تماما في القرن السابع الميلادي، ليستوطنها البدو التي لاتزال خيامهم السود تعانق الأفق. إلى أي مدى كانت أوروك "الوركاء" حقاً "أم المدن"، ذلك جدل ما زال حامياً بين علماء الآثار. إنها كانت مهد اختراع الكتابة والرياضيات والأدب، بل هي واحدة من أهم وأفضل الأماكن في ذاكرة البشرية.

إن حجم الموقع هو شهادة على حجم المنجزات في بلاد وادي الرافدين، الحضارة الأولى في العالم. داخل بواباتها الطينية، تتجمع الكثبان الرملية الضخمة . كانت المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد دائرية الشكل قطرها بحدود ٣ كم، بينما محيطها حوالي ٩ كم. كشفت جهود علماء الآثار في القرن الماضي عن مصاطب ومنصات وأسوار عظيمة مبنية من الآجر المفخور كأنها أسس لناطحات السحاب. في أماكن تنخفض بحدود ٧٥ قدما(٢٢ م)عن أقدام الزوار يمكن رؤية بقايا تاريخ البشرية: الزجاج الإسلامي، الأواني الهلنستية، توابيت الطين من الفترة الفرثية، كسر من فخار فترة العُبيد الأسود المخضر، والمناجل الفخارية التي استخدمها سكان السهل الرسوبي في الألف السادس قبل الميلاد. في مثل هذا المكان توجد صورة وقصة الحضارة: في بداياتها، نموها، ازدهارها وانتصاراتها، وربما نهايتها أيضا.

مثل ثقافات وادي نهر النيل ونهر الهندوس، كسبت بلاد وادي الرافدين وجودها من خلال نظام نهري. بدأت المجتمعات البشرية الكبيرة في النمو منذ نحو عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. جغرافيا، يمكن وصف ظهورها بقوس حضاري يبدأ من جبال زاجروس، الأناضول، سوريا ثم فلسطين، بدءا من المستوطنات في كل من أريحا في فلسطين وجاتل هيوك في تركيا، لكن هذه المستوطنات كانت صغيرة نسبيا. كان التطور الأهم في الجزء الجنوبي من بلاد وادي الرافدين هو ظهور تقنيات الري المتطورة التي ساهمت في فتح آفاق مهمة لعملية تركيز كبير في الموارد والبشر.لكن حتى هذا التطور كان لا يزال محصوراً نسبياً في منطقة من الأراضي المروية التي تقدر بـ ٢٥ ألف كم مربع، مماثلة في الحجم للأراضي المروية في مصر خلال عصر السلالة المبكرة.

ظهرت أولى المدن والدول في الألف الرابع قبل الميلاد. مدن ودول أثرت ثقافاتها ومجتمعاتها في كل جانب من جوانب الحياة، ليس فقط في غرب آسيا، بل في مناطق بعيدة.

في الألف الثالث قبل الميلاد، كان هناك ٤٠ مدينة في بلاد سومر وأكد على امتداد السهل البابلي. كانت لجش (تلول الهباء في محافظة ذي قار، المترجم)، واحدة من دويلات المدن الكبيرة، التي يبلغ طولها ٤ كم، كان فيها ٣٦ الفا من الذكور البالغين في الألف الثالث قبل الميلاد، مما يؤشر ان نفوس المدينة كان نحو مئة ألف نسمة.

ربما كانت أوروك بالحجم نفسه. كل واحدة من دويلات المدن كانت تسيطر على مساحة من الارض، دويلة نيبور(نفر الحالية في الديوانية: المترجم)، على سبيل المثال، كانت تضم ٢٠٠ قرية فرعية تنتشر على طول خمس قنوات ري رئيسة و٦٠ قناة صغيرة. كلها تخضع لقوانين وأعراف ومراقبة دقيقة.

هذه المراكز الحضرية المتطورة كانت تستفيد من شبكة تجارية، التي ،في حالة أوروك، ترتبط مع تركيا، سوريا، وجبال زاجروس. تُظهر الابحاث الحالية ان بلاد وادي الرافدين، ربما، لم تكن فقط الموضع الأول لولادة الثقافة التجارية في العالم، بل كانت أيضاً أول مكان خاص بالمعاهدات والأسواق التجارية.ليس من المستغرب بعد ذلك ان يتم اختراع الكتابة، القوانين المكتوبة، قوانين العقود والمعاهدات الدولية لأول مرة في المنطقة. ليس التاريخ وحده يبدأ في سومر، بل الاقتصاد كذلك.

الفن والحرب

إذن من هم أولئك الذين حققوا هذا الإنجاز في تاريخ البشرية؟ كان السومريون هم سكان السهل الرسوبي في جنوب العراق خلال عصور ما قبل التاريخ. على الرغم من وجود العديد من النظريات، فإن انتماءهم العرقي واللغوي لم يتّضح بعد، ولغتهم لا علاقة لها بأية لغة معروفة.

في الألف الثالث قبل الميلاد، حدث تواصل وترابط ثقافي وثيق بين السومريين والأكديين، الذين عاشوا في وسط السهل الرسوبي، في المنطقة التي تقع حول وجنوب بغداد الحالية. كان العديد من المنجزات الحضارية في بلاد وادي الرافدين نتاجاً لهذا التعايش. انتهت اللغة السومرية بوصفها لغة حية في نحو ١٦٠٠ قبل الميلاد، لكنها بقيت متداولة بين العلماء والأدباء والكهنة. بمرور الوقت، وصلنا آخر نص سومري مستنسخ في الفترة الهلنستية في القرن الثاني قبل الميلاد، حيث حلت محلها اللغة الأكدية كلغة للأدب قي بلاد وادي الرافدين. اختفى السومريون واختلطوا في مزيج عراقي قديم متعدد الأعراق. عندما أجريت الحفريات في العراق في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، كان شائعاً بأن الجذورالثقافية للحضارة الغربية هما الحضارتان: الأغريقية والرومانية في العصور الكلاسيكية بالإضافة الى ثقافة الديانتين: اليهودية والمسيحية.

على الرغم من أن سفر التكوين ذكر أوروك، أكد وبابل، إلاّ انه (سفر التكوين) لم يذكر اعتبارهما أقدم الحضارات والتي كانت ذات تأثير عظيم على حضارات الشرق الأدنى القديم وحوض البحر المتوسط. في ذلك الوقت (منتصف القرن التاسع عشر) لم يكن معروفاً ان بلاد وادي الرافدين هي صاحبة السبق في اختراع الكتابة والأدب، الرياضيات والفلك، العلوم والهندسة، وفي اختراع العجلة وأقدم قانون وشريعة. حتى اليوم، نحن نحسب الوقت والمكان استناداً إلى مضاعفات العددين ١٢ و ٦٠ اللذين هما من اختراع سكان بلاد وادي الرافدين.

صراع وإبداع

إذاً كانت بلاد وادي الرافدين هي المكان الأول للإبداع الثقافي والتقني، فإنها ايضاً موقع للصراع الدائم، مع عدم وجود طبيعة تحميها من أقاليم ودول الجوار، فإنها كانت دائماً مفتوحة أمام هجمات الهمج والغزاة من الخارج، وداخلياً كانت فريسة للنزاع المستمر على الموارد، خصوصاً المياه. ليس من المستغرب، إذن، أن نرى أول قانون منظم في التاريخ، وأول حرب منظمة أيضاً.

كان تاريخ بلاد وادي الرافدين مزيجاً من الإبداع الفريد المميّز والعنف والدمار المميّزين ايضاً، تاريخ معلّم بالغزوات والحروب المدمرة، كما هو معلّم بالإنجازات العظيمة التي طالما تحطمت لمرات عديدة. منذ الخراب الذي لحق بسلالة أور الثالثة مروراً بالدمار الذي أحدثه المغول والتتار والسلاجقة، وصولاً الى وحشية الحروب الأخيرة. مع ذلك، خلال جميع هذه الصراعات نجت حضارة واحدة معترف بها اسمها " الحضارة أو الثقافة العراقية" أو كما أسماها المؤرخ الفرنسي فرنارد بروديل " المصير المُفرد" ، شخصية عراقية ربما تكون مختلفة عن الشخصية المصرية المتفائلة مثلاً. كان أوائل العراقيين متشائمين في نظرتهم الى مصير الإنسان. عرف شعراؤها مبكراً ان المنجزات الإنسانية هي منجزات هشّة، مقدّر لها أن تكون دائماً معرضة للمحو والمسح. هذه الرؤية طبعت أوائل الشعر العالمي(الشعر الرافديني) حتى وصل تأثيرها الى الشعر العراقي الحديث. ربما هذا يفسّر لنا لماذا أصبح الرثاء تقليداً في الطقوس العراقية القديمة والمعاصرة. طابع ميّز العراقيين عن باقي العرب. كيف ومتى انتهت الحضارة العراقية العظيمة؟. تجدر الإشارة الى أنه لا يوجد في الثقافة العراقية خط واضح يفصل بين العالم القديم والعصور الوسطى. تبدو حملة الإسكندر سنة ٣٣١ قبل الميلاد، تبدو وكأنها انتهت على الورق. لكن في واقع الحال إن العصر الذي شهد نهاية الحضارة العراقية العظيمة (سقوط وانهيار بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، المترجم) كان مفتتحاً لألف سنة من الثقافة الهيلينية متعددة اللغات التي امتدت في منطقة شاسعة بقدر الهند.

يبدو أن الفتح العربي للعراق كان آخر نقطة تحول ثقافي، ولكن حتى ذلك الحين، كان التغيير بطيئاً، كان التأثير مباشراً ومنصباً على العقول أكثر منه على الأعراف والثقافة المادية. كما ورثت المسيحية الامبراطورية الرومانية، ورث الإسلام ثقافة منطقة غرب آسيا والشرق الأدنى القديم. وبهذا المعنى يمكن اعتبار الإسلام مجرد استمرار وبناء لثقافة أقدم. كانت بغداد عاصمة الخلافة العظيمة التي تأسست في سنة ٧٦٢ ميلادية، المدينة الواسعة في بلاد وادي الرافدين ، كانت مبنية من الطوب المحروق (الآجر المفخور) على غرار الطريقة الرافدينية القديمة. وإذا كان التغيير بطيئاً في بغداد، فإنه كان أبطأ حتى في المدن القديمة، على سبيل المثال، مدينة نيبور المقدسة. واصلت بغداد لتكون مركزاً للعلماء المسلمين والمسيحيين واليهود. كان استمراراً للمدينة العراقية القديمة بأزقتها المكتظة التي تشبه اربيل او كركوك اليوم، مدينة تضم المساجد والكنائس والمعابد، ويوجد فيها المتعبد الصوفي والمحامي التلمودي. استمر نشاط الريف العراقي القديم حتى القرن الحادي عشر الميلادي، حيث القبائل في جنوب السهل الرسوبي تعبد آلهة الماء البدائية، وحيث مسكن "إنكي" إله سومر القديمة. في العراق، كان الغزو المغولي سنة ١٢٨٥ ميلادية هو الخط الفاصل الحقيقي بين العالمين: القديم والحديث، عندما دُمّر نظام الري القديم وهلك الناس في البلاد الشاسعة. لكن حتى في ذلك الحين، لم ينته العالم القديم. اليوم، في شوارع النجف، خلال طقوس عاشوراء، لايزال الناس يمارسون المرثيات والشعائر ويستعيدون سمة من سمات ثقافتهم القديمة. وصف هيرودوتس الملابس التقليدية البابلية بانها " دشداشة وكوفية" هو ما يمكن رؤيته اليوم في أي مكان في العراق.

ثمة جانب آخر من النفوذ الثقافي العراقي القديم، هو تأثيره على الأدب الغربي والعربي. إن إعادة اكتشاف التراث والأدب العراقي القديم في القرن التاسع عشر، اظهر عمق الصلات والتأثير على الكتاب المقدّس: قصة الطوفان، نوح، برج بابل، وجنة عدن، كانت هذه قصص تلاها العهد القديم في رؤية حزقيال البابلي" الشبه ومجد الله"، وهذا كله تراث رافديني.

لكن العلماء أبطأوا في تبيان حقيقة أن الأدب العربي والأغريقي كان مليئاً بالأفكار والصور والقصص الرافدينية، خصوصاً ملحمة جلجامش،الملك الأسطوري لمدينة أوروك، التي قد تكون العمل الوحيد المتفرد الذي أثر في الأدب العالمي. من الواضح الآن ، على سبيل المثال ، أن الكثير من حكايات الليالي العربية هي مستمدة من الحكايات العراقية القديمة التي تم تناقلها شفويا لمدة طويلة. الشيء نفسه ينطبق على سعي جلجامش العظيم في البحث عن سر الحياة الأبدية ، رحلة الروح هذه التي تبلورت في قصص العصور الوسطى وحتى الصوفية الإسلامية ، كما يبدو ، وصلت إلى جحيم دانتي. الأدب اليوناني المبكر- خصوصاً ملحمة هوميروس ،هيسيود، والأدب الملحمي التقليدي- قد تأثر بشدة من حيث الشكل والمحتوى بملحمة جلجامش. باختصار، فإن الحضارة العراقية القديمة لاتزال ماثلة ليس فقط في طرق تفكيرنا وحساب الوقت والقياس، بل في القصص التي نحب.

بلاد وادي الرافدين في عصر صدّام

في عصر صدّام، تم تحييد وعزل تاريخ بلاد وادي الرافدين من قبل نظام البعث: تم تنفيذ مشاريع ترميم واسعة، بعضها مؤثرة (مثل اعمال الصيانة في زقورة أور) والبعض الآخر كان مدفوعاً بجنون العظمة (مثل إعادة بناء قصر في بابل حيث خُتم الآجر باسم صدّام). واجه المسافرون في أنحاء العراق بالعديد من الصور الجدارية واللوحات الضخمة لصدام حسين، مثلاً : صدام وهو يمتطي حصاناً ابيض يشبه حصان الحسين في كربلاء، أو صورة لصدام وهو يتسلم لوح القدر من الملك آشوربانيبال. لكن حربي عام ١٩٩١ و٢٠٠٣ دمرتا تراث البلد الذي لا يضاهى.

بالطبع، شاهدت الأجيال العراقية السابقة، شاهدت الكنوز وهي تنقل الى لندن وباريس وبرلين، لكن ما بقي منها قد مُني بأضرار جسيمة. نجت من المحنة مدن عظيمة مثل أوروك ونيبور، لكن بابل أصيبت بأضرار بليغة، كما نهبت مواقع معزولة مثل أومّا القديمة (موقع جوخا في الناصرية، المترجم)، واحدة من اوائل المدن في العالم ، نهبت بشكل ممنهج. مدينة أومّا التي تعاني حفريات غير مشروعة، نهبت الألواح الطينية المكتوبة من مكتبات معابدها وتم عرضها في أسواق الفنون. لحقت أضرار بالمكتبة الوطنية العراقية، ودُمّر أرشيف العراق الحديث.

مثل باقي الحضارات العظيمة، كاليونانية، الهندية، الصينية والفارسية، كان العراق على مدى آلاف السنين قادراً على إعادة تشكيل نفسه، والحفاظ على ثقافته الخاصة والمميزة.

يطلب منا صاحب ملحمة جلجامش أن " اعلُ أسوار أوروك، وامش عليها، وانظر إلى أسس الجدران، أليست هي رائعة؟ ألم يكن الحكماء السبعة أنفسهم مَن وضع ذلك كله؟".

إعجابه (جلجامش) بالمنجزات البشرية أثار المشاعر ونحن نتجول في أوروك اليوم وهي تقبع تحت نفاث طائرات الحلفاء وسط الدمار في عصرنا.

مايكل وود هو مخرج ومذيع ،عمل في العراق لأكثر من ٢٠ عاما.

ترجمة : عبد الأمير الحمداني

نزاهة الانتخابات.. والسيادة الوطنية

حسين عبد الرازق

تعرضت الحكومة المصرية خلال الأيام والأسابيع القليلة الماضية لنقد رسمي علني من الإدارة والكونجرس الأمريكي في مناسبتين..

الأولى بمناسبة صدور تقرير)الحريات الدينية(الأمريكي يوم الأربعاء قبل الماضي .تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٠ والذي تصدره سنويا وزارة الخارجية الأمريكية، وتضمنه اتهاماً للحكومة المصرية بممارسة التمييز ضد المسيحيين، ثم إعراب) لجنة الحريات الدينية(بالكونجرس الأمريكي عن قلقها من)تنامي التحريض في وسائل الإعلام والمساجد في مصر ضد الأقباط(وتأثير ذلك على زيادة التوترات الطائفية بين المسلمين والمسيحيين قبل انتخابات مجلس الشعب المقبلة)فهذا النوع من الخطاب يذكي نار المتطرفين الباحثين عن سبب لتبرير أعمال العنف ضد الأقليات الدينية(كما قال)ليوناردليو(رئيس اللجنة يوم الجمعة الماضي.

المناسبة الثانية كانت بدء معركة انتخابات مجلس الشعب الجديد في منتصف هذا الشهر، وتأكيد (فيليب كراولي) المتحدث باسم الخارجية الأمريكية أن بلاده ملتزمة بتأييد ودعم إجراء انتخابات حرة وحيادية في مصر ومحملا الحكومة المصرية مسؤولية تطبيق تعهداتها بإجراء انتخابات شفافة ونزيهة وضرورة وجود رقابة دولية على هذه الانتخابات، قال كراولي) ترحب واشنطن بإعلان الحكومة المصرية التزامها بتوسيع دائرة المشاركة السياسية وضمان إجراء الانتخابات البرلمانية بحرية وشفافية بما في ذلك تسهيل عمل منظمات المجتمع المدني لمراقبة الانتخابات(مشددا على أن)أي عملية انتخابية شفافة تقتضي أيضا وجود آلية حيادية ونزيهة لمراجعة الشكاوي والاعتراضات على نتائج الانتخابات والرقابة المحلية طبقا للمعايير الدولية، إلى جانب وجود المراقبين الدوليين«.

وأضاف (جيمس بيفر) الرئيس الجديد لبعثة الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بالقاهرة أن (كل دول العالم تستعين بمراقبين دوليين، حتى الولايات المتحدة تستعين بمراقبين من معظم دول العالم في الانتخابات التي تجريها على أرضها، ولا يقتصر ذلك على مراقبين من الدول المتقدمة فقط وإنما يكون هناك مراقبون من الدول النامية أيضا).

وجاء رد الفعل الرسمي على لسان المتحدثين باسم الخارجية المصرية حادا، فقال إن المواقف الأمريكية تجاه الشؤون الداخلية الأمريكية(أمر مرفوض بشكل قاطع من جانب مصر، ورفض هذا السلوك الأمريكي يأتي بغض النظر عن أي حجج أو ذرائع يمكن أن يسوقها البعض لتبرير هذا الأمر... إن مصر تعتز كل الاعتزاز بسيادتها واستقلال إرادتها الوطنية، ولن تسمح لأي طرف كان بما في ذلك الولايات المتحدة بالتدخل في شأنها الداخلي تحت أي ذريعة، لكن يبدو أن الجانب الأمريكي يصر على عدم احترام خصوصية المجتمع المصري بتصرفات وتصريحات تستفز الشعور الوطني المصري وكأن الولايات المتحدة تحولت إلى وصي على كيفية إدارة المجتمع المصري لشؤونه السياسية مضيفا أن من يعتقد أن هذا الأمر ممكن فهو واهم).

وبصرف النظر عن صحة ما يقال عن ازدواجية المعايير في السياسة الخارجية الأمريكية ودعمها النظم الاستبدادية وتجاهل الإدارة الأمريكية انتهاكات هذه الحكومات للحريات وحقوق الإنسان وممارستها التمييز ضد الأقليات القومية أو الدينية، كما يحدث مع الحكومة المصرية.. فما قالته الإدارة الأمريكية حول التمييز ضد المسيحيين في مصر وتزوير الانتخابات العامة أمور حقيقية لم تستطع الحكومة المصرية في ردها إنكارها أو المجادلة بشأنها واكتفت بالحديث عن الاستقلال والإرادة والسيادة الوطنية، التي أهدرها النظام الحاكم في مصر منذ انقلاب القصر في ٣١ أيار /مايو ١٩٧١ وتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح مع العدو الإسرائيلي والتبعية السياسية والاقتصادية والعسكرية للسياسة الأمريكية في المنطقة والعالم.

فالتمييز ضد المسيحيين وانفجار العنف والفتنة الطائفية في مصر حقيقة مؤسفة منذ عام ١٩٧٢ وحتى اليوم، ونتيجة لسياسة واضحة يطبقها الحزب الحاكم بإصرار، بدءاً من النص في دستور ١٩٧١ والتعديلات التالية على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، واستخدام الدين) الإسلامي(كمصدر للشرعية السياسية وكأداة للتعبئة الاجتماعية والسياسية، وفي تبرير القرارات السياسية، والتمييز ضد المسيحيين في التعيين في الوظائف، فيمنع وجود المسيحيين في المخابرات العامة ومباحث أمن الدولة، ولا يوجد قبطي واحد يحتل موقعا رئيسيا في القوات المسلحة أو الشرطة، ومن بين ٩٢ محافظا هناك محافظ قبطي واحد عين أخيرا، وهناك أكثر من عشرين جامعة حكومية لا يرأس أكاديمي قبطي واحد أياً منها... إلخ، وفي ظل المناخ الطائفي والتعصب يتراجع دور الأقباط في الحياة العامة، فبعد أن كان هناك ٦١ قبطيا منتخبا في أول برلمان مصري بعد دستور ١٩٢٣، وارتفع الرقم إلى ٢٣ في برلمان ١٩٢٧، تراجع عدد المسيحيين المنتخبين في البرلمان الحالي إلى واحد فقط هو د. يوسف بطرس غالي) الوزير«.

وليس مصادفة ترحيب الكنائس المصرية الثلاث)الأرثوذكسية ، الكاثوليكية ، الإنجيلية(للمرة الأولي بالتقرير الأمريكي، مؤكدة وجود تمييز ضد المسيحيين.

أما تزوير الانتخابات العامة، فحدث ولا حرج، فتقارير الدوائر المختلفة لمحكمة النقض حول الطعون التي تقدم في الانتخابات العامة، والأحكام القضائية، وتقارير منظمات حقوق الإنسان المصرية والمجتمع المدني تقطع بتزوير كل الانتخابات العامة – بدرجات متفاوتة –منذ بدء التعددية الحزبية المقيدة عام ١٩٧٦ وحتى آخر انتخابات لمجلس الشورى هذا العام، بما في ذلك انتخابات ٢٠٠٠ و٢٠٠٥ والتي تمت تحت الإشراف القضائي، ومقدمات التزوير في الانتخابات الحالية واضحة للعيان، ما لم تنجح الأحزاب والقوى السياسية في حث الناخبين على الإقبال على التصويت لحصار التزوير وهزيمته، وما لم تتوافر رقابة قد تردع المزورين. والقضاء على التمييز ضد المسيحيين وتحقيق نزاهة وحرية الانتخابات هي في النهاية معركة الشعب المصري وأحزابه وقواه السياسية، وليس أي قوة خارجية.

ثقافة الفقاعات

فريدة النقاش

هل انتهى عصر الفقاعات الثقافية بما فيه من مواد استهلاكية خفيفة وإزاحة للقيم الكبرى والأفكار والقضايا الرئيسية وعلى رأسها فكرة الثقافة العامة التي تعمل كعنصر توحيد وتجانس للطبقات الاجتماعية وللمجتمع؟

يرد الكاتب الأمريكي (دافيد بروكس) على هذا السؤال بالإيجاب وهو يعلق على اندماج النسخة الورقية من مجلة (النيوزويك) في نسختها الإلكترونية بعد المصاعب المالية التي واجهتها النسخة المطبوعة، وهي مصاعب تواجه كل الصحافة والثقافة الجادة والرفيعة في العالم أجمع نتيجة للمنافسة الضارية مع وسائل الاتصال الحديثة التي تتطور يوميا دون مبالغة من التليفزيون للإنترنت، وتجذب إليها ملايين البشر الذين يكتفون بها بديلا عن الصحف والمجلات والكتب.

ويرى (بروكس) أنه بعد (الهوجة) الكبرى لوسائل الاتصال هذه أخذ الأمريكيون في السنوات الأخيرة يستعيدون تقاليدهم الثقافية التي بدأت في القرن التاسع عشر، وعلى أساس من هذه التقاليد المستعادة سوف تنهض صناعة الكتاب والمجلات الجادة مرة أخرى، وقد بدأت هذه النهضة فعلا.

ومن التقاليد التي يركز عليها (بروكس) مقاله فكرة التطوير الثقافي الذاتي حيث اعتاد الأمريكيون وهم يبنون شخصياتهم ويسعون للتقدم في المجتمع أن يتعرفوا . أيا كانت وظائفهم عمالا.. بائعين.. فلاحين.. أو ربات بيوت . على أفضل ما أنتجه الفكر البشري والمعارف الإنسانية، وكان من الشروط التي يكتسب بها الإنسان الاحترام في محيطه الاجتماعي وأمام نفسه أن يتعرف على روائع الأعمال الثقافية بجدية وهو يكافح ضد النزعة المادية والنفعية الرخيصة والاستهلاكية في الثقافة، وحتي يفعل المرء ذلك عليه أن يكون محاورا جيدا في الفلسفة واللاهوت والأحداث السياسية الكبرى في العالم أجمع، ويقتضي ذلك متابعة جيدة للإنتاج الثقافي والفكري السياسي والابتعاد قدر الإمكان عن المعلومات المخطوفة المبتسرة، وطبقا لبروكس فقد طبعت وسائل الاتصال الأمريكية لأكثر من قرن وكانت الأسر الفقيرة تجمع الأموال فيما بينها لشراء موسوعة المعارف، أو الاشتراك في منتدى كتاب الشهر، وشراء كتاب ويل ديورانت عن الحضارة من عدة أجزاء وظهرت مجلات مثل النيوزويك، و(هاربر سترادي ريفيو) و(التايم) لتلبية هذا الاحتياج الثقافي.

وأفردت كل من (النيوزويك) و(التايم) لعقود طويلة صفحات للأوبرا والفن واللاهوت أكثر من تلك التي أفردتها لكل من هوليود والقضايا الصحية، أما القضايا التي أثارتها بخصوص الفن واللاهوت فقد أشعلت خيال مئات الآلاف من المراهقين والشابات والشبان المتشوقين للمعرفة والتقدم في الحياة عبر هذه المعرفة، وذلك قبل أن تحرث الثقافة الاستهلاكية الأرض وتهمش تلك التوجهات المبنية على القيم العليا وتفسح المجال لوسائل الاتصال الحديثة والسريعة، أي لعصر الفقاعات كما وصفه (بروكس).

بوسعنا أن نتبين نمو مثل هذه الظاهرة في ثقافتنا المصرية والعربية، ولو البطيئة نسبيا ،إلى الجدي والرفيع بل ودخول مئات من الشبان والشابات إلي ميدان الإنتاج الأدبي والفكري الذي يخاصم الطابع الاستهلاكي التجاري لثقافة الاتصال الجديد، بل إن بعض هؤلاء الشبان والفتيات يستخدمون الإنترنت علي نحو خاص للتواصل الكفاحي والسياسي وليس لمجرد الدردشة والتواصل الاجتماعي، وتلعب وسائل الاتصال الحديثة دور الداعم الإضافي للمجلات والصحف الجادة والكتب الرفيعة وتفتح لها الآفاق على جمهور جديد، وبقي أن يعتدل الميزان بين المادة المطبوعة من كتب ومجلات والمادة المبثوثة إلكترونياً، وفي ظني أن كلاً من الكتاب والمجلة والصحيفة المطبوعة لن تختفي كما يقال ولكنها ستطور نفسها لتلبية احتياجات جديدة باعتبارها هي نفسها، إن كانت جدية ورفيعة، عاصماً ضد الثقافة التجارية الاستهلاكية أو ثقافة الفقاعات.

ولعلنا سوف نلاحظ أن ما يسميه (بروكس) بالعودة إلى الثقافة الجادة قد ارتبط بالأسئلة السياسية الكبرى التي تسألها الشعوب عن مصيرها بعد أن ثبت عجز الرأسمالية وبخاصة جناحها الطفيلي المضارب والسائد عن تقديم حلول جدية للأزمة العامة التي تواجهها البشرية في العقود الأخيرة، وقدمت بعض شعوب أمريكا اللاتينية ردودها في انتخابات عامة قائلة: إننا في حاجة إلي نظام اجتماعي ، اقتصادي جديد يتجاوز الرأسمالية، وربما يكون جنيناً مثل هذا النظام البزيع هو الذي بث الحياة مجددا في الثقافة الجادة وأزاح إلى الخلف ثقافة الفقاعات التي أنتجتها الطفيلية وروجت لها.